الاسلام والعلوم الجغرافية

محاضرة ألقاها بالألمانية فى رابطة الثقافة الاسلامية بفينا

الأستاذ أحمد زكى وليدى بك
أستاذ التاريخ التركى بجامعة استنبول سابقاً

إننا نبتعد شيئاً فشيئاً عن الزمن الذى كانت تعتبر فيه التحولات التى نجمت عن الفتوحات العربية والتركية والمغولية وعن هجرات هذه الأقوام من شمال شرقى وجنوب غربى آسيا نكبة على تاريخ العالم وتعد كارثة على الحضارة الانسانية . أما الآن فالعلماء أمثال هنرى بيرينيه والآخرين اسكندر وأوجين كوليشر، ثم هنا فى فينا الأستاذ روبش والأستاذة ارنا باتسلت، يبرهنون على العكس أن هذه الحركات لعبت دوراً عظيما إيجابياً فى تاريخ المدنية .

إن حوادث التاريخ مرتبطة فيما بينها ، فبدون الثقافة الكلاسيكية لا يمكننا تصور وتقدير الثقافة الاسلامية ، وكذلك الحركة الثقافية الحديثة فى الشرق لا تتصور وتقدر بدون المدنية الأوروبية ، وبالمثل لم تكن الثقافة الافرنجية لتقوم لها قائمة ما لم تقم المدنية الاسلامية فى التاريخ ، وكما قال بيرينيه « بدون محمد لم يكن أحد يتذكر شارلمان » .

ولو لم تدخل فى الاسلام شعوب وسط آسيا (الايرانية والتركية) لبقى الاسلام ديناً محصوراً فى غرب آسيا ، ولما صار مدنية عالمية استطاعت أن تنتشر إلى شواطىء المحيط الهادىء ، ولو لم يفتح المسلمون الأتراك بلاد الهند لما تيسر للهند أن تشترك فى الحركة الثقافية التى قامت فى غرب آسيا فى العصور الوسطى ، وكذلك لولا الضغط العربى والبربرى عن طريق اسبانيا لما انتشرت التجارة الألمانية البحرية فى بحر البلطيق .

ولم تتسع التجارة والعلاقات الثقافية بين آسيا (شرقا ووسطا وغربا) وبين شرق أوربا إلا بعد الفتوحات المغولية ـ ما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر ـ التى نشطت بها حركة تأسيس الشركات التجارية العالمية . وقد أصبحت اليوم هذه المسائل ـ وخاصة تأثير سيول الهجرة الجارفة من آسيا نحو العالم الخارجى ـ محل عناية عظمى عند كثير من العلماء .

إن العرب والبربر وكذلك الأتراك المغول لم يكن لهم من التأثير فى الحركات الثقافية للشعوب الأخرى ، أن بثوا عوامل النهضة فحسب ، بل إن ثقافتهم ذاتها كانت غنية المادة غزيرة القوة [illegible] ، ونجد اليوم أن دراسة الحركات الثقافية من الوجهة البسيكولوجية وعلاقاتها الزمانية والمكانية إحدى المسائل التى تستغرق عناية المؤرخين والجغرافيين العصريين .

تكوّن الجغرافية الاسلامية أساس مثل هذه الدراسات، وقد بين بارکارات وتوماشك وبارتولد وبستراتج وشفارتز بوضوح أهمية هذه المعلومات عن غرب وأواسط آسيا ؛ فلولا العلوم الجغرافية التاريخية الاسلامية لما وصل إلينا علم عن حياة المدن وثقافتها فى غرب ووسط آسيا ليس فقط فى العصر الاسلامى بل فى زمن الساسانيين . وقد وضح فرين وماركارت ويعقوب ونيمت أهمية هذه الجغرافية لشرق أوربا ، كما وضحها رينو وساخاو وفراند لجنوب شرق أوروبا وجنوب شرق آسيا.

وإن مؤلفات علماء الجغرافية الأقدمين من العرب (البتانى والخوارزمى وسهراب) تعتمد فى وصف أقاصى المعمورة على المصادر اليونانية . وأما الجغرافيون الذين يرجع أصلهم إلى وسط آسيا (مثل الجيهانى والكرديزى والمؤلف المجهول لكتاب حدود العالم، ثم البيرونى) فقد خلصوا هذه المعلومات تدريجاً من التأثيرات اليونانية والانجيلية واليهودية .

ولكى تتوفر المعرفة عن شرق آسيا وشرق أوربا ، كان قيام الدول الثلاث التركية المسلمة أعنى القراجانية (أو الأيليكية) فى وسط آسيا والغزنوية فى جنوب آسيا والبلغار المسلمين على شواطىء الفولجا ذا أثر عظيم، فتمكن العلامة البيرونى من تدوين تواريخ مضبوطة عن شرق آسيا والاوقيانوسية عن طريق التركستان الشرقية والطرق البحرية فى جنوب وشرق آسيا ، ثم عن شرق أوربا عن طريق التجار البلغار والخوارزم ، وأمكنه أيضاً عن طريق سفراء الصين والتركستان الشرقية الذين كانوا ينتمون إلى أصل تركى إسلامى وأتوا عن طريق البحر والهند إلى غزنة فى أفغانستان الحاضرة ، أن يستقى معلومات وبيانات عن القطب الجنوبى وراء المحيط الهندى . ويستفاد من سائر كتابات البيرونى أن التجار المسلمين الأوائل من عهد الأمويين أسسوا مستعمرات فى البحر الأخضر أعنى المحيط الهندى حول جزائر جاوه ، وتزوجوا من نساء تلك الجزائر .

وإنى أظن أن كلام الجغرافى ابن رستة (طبعة دى جويه ص ٨٨٠) عن مكان فى أرض الزنج حيث يكون النهار ست ساعات فقط ، يرجح أنه كان يعنى جنوب أستراليا ، ولو أن القس أ . كايس الألمانى وجبريل فيراند الفرنسى أرادا تعليل كلامه تعليلاً آخر .

وقد كان البيرونى أول مسلم أورد بيانات بأسماء نهر أنغار فى شرق سيبريا وبأخبار السكان فى مناطق بحيرة البايقال ومناطق اسكندناوه القديمة المسماة « ورنك » ثم عن صناعة المعادن فى شمال شرق أوربا ، وكذلك عن البحر المتجمد الشمالى . وتمكن عن طريق التجار المسلمين فى أفريقيا أن يحصل على معلومات قيمة عن جنوب أفريقيا ، وعن موزمبيق (سفالة الزنج) وعن البلاد الواقعة جنوبى خط الاستواء ، حيث يظن البيرونى أن الوقت يكون هناك شتاءً حين يكون عندنا صيفاً — وطبعاً لم يكن بين معلومات هذا العلامة المطلع أمثال جبال قاف

(الموجودة فى المنقولات الاسلامية) ولا الخرافات اليونانيـة عن عجريب وهيـبربورى Agribhie ec Hyberborie، ثم عن سد يأجوج ومأجوج التى كثيراً ما بحث عنها الجغرافيون المسلمون الأقدمون فى شمال بحر الخزر أو خلف جبال تيانشان ، فلم تـكن فى رأى البيرونى سوى الأجزاء الغربية من سور الصين ، كما يعتبره كذلك العالم التركستانى محمود الـكاشغرى فى خريطته ، والجغرافيون المعاصرون أيضاً مثل دى جوية ومارقوارت .

ومع هذا بقى الشرق الأقصى مجهولا نوعاً ما عند البيرونى أيضاً، فعنده أن الإقليم الثانى ينتهى حيث تنتهى الأقاليم: الخامس والسادس والسابع . أما فى عهد المغول فلم تبق هناك بقعة لم تـكن معروفة للمسلمين فى شرق أوربا وشمال شرق وجنوب آسيا . فالوزير المغولى فى إيران (رشـيد الدين) قد دون بيانات هامة مطولة عن الجغرافيا وعلوم وصف الأقوام فى وسـط وشرق آسيا ، كما ترك لنا مؤلفات عن تاريخ الصين والهند وأوربا حافلة بالصور المقابلة، وتلك الصور توضح بدقة أشكال الصينيين والأوربيين وأزياءهم فى ذلك العهد البعيـد . ونجد فى هذه الـكتب نبذاً قيمة عن الصين والهند وأوربا (وتوجد أحسن المخطوطات الباقية من هذه الـكتب المصورة فى مكتبة طوبقبوسراى باستانبول) وكان للجغرافيين المسلمين فى عهد المغول تأثير فى العلوم الجغرافية فى الصين، فإن الخريطة الصينية الرسمية التى يرجع تاريخها إلى عام ١٣٣١ هى ـ كما أثبت البرت هرمان ـ إما أن تـكون قد رسمت بإرشاد الجغرافيين المسلمين أو إنهم هم الذين وضعوها . وهناك مهندس مسلم آخر هو قطب الدين شيرازى خدم المغول فى إيران، وقد رسم خريطة عام ١٢٩٠ للبحر الأبيض المتوسط وقدمها إلى الملك المغولى الأيلخانى أرغون خان ، كما أن المغوليين جنكيز وتيمور وغيرهما اسـتخدموا كثيراً خرائط الجغرافية لأغراض حربية فنية. وفى عهد خلفاء أرغون ـ وهما غازان وأولجايتو ـ ألفت جغرافية للعالم اشترك فى تصنيفها علماء من مختلف الأقطار .

ولـكن مع الأسف لم يمكن العثور إلى يومنا هذا لا على الخرائط السالفة ولا على هذا المؤلف الجغرافى للعالم، وما تلى ذلك من مؤلفات فهو فقير فى مادته الأصلية . ولـكن مع هذا فقد ترك لنا المغول ـ وخاصة تيمور ـ أوصافاً مفصلة لأسفارهم الحربية وخطوط زحف جيوشهم التى كان يرسمها لهم كتابهم المعروفون باسم بخشيه ، ثم ترجمت هذه الـكتابات فيما بعد إلى اللغة الفارسية .

وقد تمـكنا لأول مرة من الحصول على معلومات تختص [illegible] والمركز الاقتصادى لآسيا الصغرى وإيران عن طريق الجغرافيين والمؤرخين فى بلاد المغول ، كما عرفنا أيضاً لأول مرة عن طريق المدونين المغول ـ مثل رشيد الدين دوصاف، وربانيـة المراكب العربية (مثل أحمد بن ماجد وسليمان بن أحمد المهدى) ـ شيئاً عن طرق التجارة البحرية فى جنوب

شرق آسيا والتى نشطت من جديد أثناء نفوذ المغول فى إيران والصين كما وصلتنا معلومات وأخبار دقيقة عن جزر الأرخبيل الملايى .

إن الجغرافيين المسلمين إذا ووزنوا بأمثالهم من اليونانيين تبين أنهم خطوا بالعلم خطوات واسعة مميزة كما استقصى ذلك بارتولد ، لأنهم اهتموا بحياة الشعوب المدنية والاقتصادية والثقافية ، أكثر مما اهتم بها علماء اليونان كما وصفوا عاداتهم ولغاتهم وعقائدهم .

ثم إن تعيين خطوط الطول والعرض للمدن كان مضبوطاً خاصة عن البيرونى ، ووصف مراحل الطرق فى البلاد كان أيضاً وافياً خاصة عند جغرافيي العهد المغولى (حمد الله قزوينى وحافظ أبرو) حتى إنه لو وضعت خريطة لإيران وما وراء النهر حسب معلومات هؤلاء لوجدناها لاتختلف اختلافا بيناً عن الخرائط المستعملة اليوم .

ولكن مع الأسف نجد أن المصادر الجغرافية الاسلامية خاصة فى الشرق نفسه ليست فى متناول المهتمين بهذا الموضوع، وكانت العناية حتى الآن موجهة نحو الطبعات القديمة للجغرافيين الأقدمين (ومنها ما نشره دى جويه وناللينو ومزيك)، ولكن لم يترجم منها إلى اللغات الأوربية سوى القليل (مختصر ابن خرداذبه وقدامه وجزء من الخوارزمى ثم المقدسى والبتانى) ولايزال من المتعذر العثور على بعض مؤلفات أعلام الجغرافيين (مثل مؤلفات الجيهانى ومفصل ابن خرداذبه، وكتاب صور الأقاليم لرشيد الدين) ومعظم ما وجد إلى الان من هذه المؤلفات لايزال بهيئة مخطوطات محفوظا فى مكاتب الممالك المختلفة، وهذه المخطوطات المبعثرة فى المكتبات المختلفة لم يتح إلا للقليلين من العلماء دراستها وهى دراسة غير كاملة (مثل بارتولد ولسترانج، وإذن فهذه المؤلفات تصبح لها قيمتها وفائدتها الفنية إذا هى طبعت مشفوعة بالانتقاد والتحليل .

وإنى أقول : « الانتقاد والتحليل » ، لأن المصادر الجغرافية الإسلامية لها أخطاؤها أيضاً، ومعظمها ـ وخاصة ما ألف بعد القرن العاشر ـ تبرز منه صورة مميزة للجغرافية التاريخية لذلك العصر أيضاً. فالجغرافيون ـ ما بين القرنين الحادى عشر والرابع عشر ـ كالإدريسى والدمشقى (وهذان مترجمان إلى الفرنسية) والبكرى (ماعدا تقريره عن غرب أفريقيا)والعمرى (وهذا مترجم جزء منه) ومعجم البلدان لياقوت الحموى، يصورون الدنيا ليس فقط كما رأوها هم بل كما وصفها المؤلفون الأقدمون أيضاً، وكثيراً ما ذكروا ما كتبه هؤلاء الأسبقون دون الإشارة إلى أسمائهم. فمثلا الإدريسى يجمع بين تقارير الأقدمين من المؤلفين المسلمين واليونانيين مع تقارير معاصريه دون أن يذكر أن هذا المزج من عنده هو، وهكذا انتقلت هذه الأمزجة فيما بعد إلى مؤلفات خلفه ومنهم ابن الوردى وابن سعيد الأندلسى.

لذلك أصبح من السهل أن يقع الإنسان فى الخطأ فينسب تقارير المؤلفين الأسبقين إلى

المؤلفين المتأخرين . ومع ذلك فهذه التقارير إذا حقق بالبحث الانتقادى التحليلى مصدرها فقد يمكن فى بعض الأحيان الوصول من وراء ذلك إلى بيانات عظيمة القيمة . وحتى المؤلفين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر مثل الشيخ أبى الفضل العلامى وأمين أحمد رازى فى الهند وكاتب جلبى فى تركيا ومحمود بن ولى فى تركستان (وهذا الأخير مؤرخ من العصر المغولى المتأخر وقد عثرت على أهم مؤلف جغرافى له سنة ١٩١٤ من بخارى) قد استقوا معلوماتهم من مصادر مفقودة الآن . كما أن أمين أحمد رازى استعمل مثل غيره كتابات جغرافية لرشيد الدين لم توجد للآن، وهكذا نجد أنه إذا عنى بجمع ودراسة مثل هذه المؤلفات الإسلامية الجغرافية فى العصر المتأخر دراسة تحليلية انتقادية ونشرت لكونت كنزاً ضخماً للمدققين من علماء تاريخ الثقافة العالمية .

وهنا أريد أن أعطى مثالا يرى كيف أن الذين أوجدوا العلوم الجغرافية الإسلامية كانوا يدركون تفوقهم على اليونان ويعتدون بقدرتهم الشخصية ويعرفون حق المعرفة ما يجب عليهم أداؤه نحو العلم . وهأنذا أذكر نبذة من كتاب لم يسبق نشره للبيرونى عن أصول التحقيق الجغرافى، وهذا الكتاب أتمه فى سبتمبر سنة ١٠٢٥ فى غزنة (فى أفغانستان الحالية) والنسخة الخطية الوحيدة بخط المؤلف موجودة فى مكتبة جامع محمد الفاتح باستانبول (نمرة ٣٣٨٦) قال :

« إن غرضى هو معرفة خط الطول لبلد معين على سطح الكرة الأرضية وهو غزنة، فإلى الآن أمكننى أن أحقق خط عرضها ، أما عن خط الطول فقد عاقتنى عدة موانع عن إمكان التثبت منه، ولكنى لو كنت ألتمس لنفسى عذراً بهذه العوائق لكنت كافراً بأنعم الله تعالى الظاهرة والباطنة ، ثم بفضل ولى النعمة التى يسبغها على (الأمير محمود الغزنوى)، ولكن كانت هناك موانع أخرى وهى عدة مشاكل علمية وحلها أدعو الله سبحانه وتعالى التوفيق ولم يفل عزيمتى فى سبيل حلها الوقوف على شفا الخطر روحاً وجسما . وإننى سأسارع فى تحصيلها وإتمامها قبل حلول الأجل . فإنى أقول إن معظم المعلومات فى كتاب الجغرافية (لبطليموس) عن الطول والعرض لبلاد معينة من سطح الأرض مصدرها السماع من [illegible] مختلفة شاسعة البعد وباستخدام هذه المعلومات لابد أن يكون بطليموس [illegible] الطريق الصحيح ــ وعلى كل حال فالأساس الذى بنيت عليه هذه المعلومات هو المسموعات، لأن تلك البلاد كانت متعذرة الوصول بسبب التباين الملى . نعم لأن هذا التباين الملى كان العائق الأكبر للسياحة فى البلاد، فنحن نرى أن بعض الشعوب ــ مثل اليهود ــ تعتقد أنها تكون مقربة إلى الله إذا اغتالت أضدادها من الشعوب الأخرى . أو أن بعض الشعوب ــ مثل الروم ــ كانت تعتبر الأجانب عبيداً، وهذا

أهون عاقبة ، أو أن السائح لكونه أجنبياً فى تلك البلاد قد يعتقل وتحوم حوله الشبه المختلفة فيكون مركزه محفوفاً بالمخاطر .

أما الآن فقد تغيرت الظروف، فإن الاسلام امتد من شرق الأرض إلى غربها حتى الأندلس فوصل شرقا حتى حدود الصين وإلى أواسط الهند وجنوباً إلى الحبشة وبلاد الزنج (يعنى جنوب أفريقيا والأرخبيل الملايوى وجاوه) وشمالا حتى بلاد الترك والصقالبة (السلاف) وجمع الأمم المختلفة على أساس الألفة التى هى صنع « تفرد الله به »، ولم يبق منهم إلا ما يكون من فساد ذوى العبث وقطاع الطرق وصارت البقية المصرة على الكفر تهاب الاسلام وتعظم أهله وتهادنهم ؛ فأصبح آنئذ تحصيل الأبعاد الجغرافية بالسماع أوثق وأصح؛ فكثيراً ما نجد فى كتاب الجغرافية (لبطليموس) بعض المواضع موقعها فى شرق مواقع أخرى بينا تكون فى الحقيقة المشاهدة غربية الموقع وبالعكس . والأسباب التى أدت إلى هذه الأخطاء إما ناشئة عن خلط أبعاد المراكز التى بنيت عليها خطوط الطول والعرض ، وإما ارتحال الأقوام من هذه البلاد إلى مواطن أخرى مع نقل أسماء هذه البلاد معهم » . انتهى كلام البيرونى.

وإذا تبينا من هذا المثال كيف أن البيرونى كان يعلم جيداً أنه ومعاصروه من الجغرافيين المسلمين فى ظروف أسعد من ظروف المؤلفين اليونان، فإننا نرى أيضاً فى كتب أخرى لهذا العلامة أنه استفاد من هذه الفرصة أيما استفادة لكى يزيد فى معلوماته وينميها، ويبدو لنا أنه كان دائماً شغوفا بالاطلاع على كل جديد فى العلوم التى نهضت باتساع الدول الإسلامية فى جنوب ووسط آسيا فى عصره .

ثم إن لهذه القطعة التى ذكرناها للبيرونى مغزى آخر فهى ترينا كيف أن عالماً خوارزمياً (خوارزم الآن فى تركستان الحاضرة) قدر انتشار الاسلام فى وطنه وفى بقية العالم أجمع ورحب بتعاون الشعوب المختلفة فى سبيل المدنية نتيجة لدخولها فى حوزة الاسلام .

وفى خوارزم ـ فى عهد البيرونى ـ لم يكن هذا التعاون مقصوراً على المسلمين بل تعداه إلى المسيحيين . أما الآن فإننا نعيش فى زمن يطغى فيه الشعور القومى شيئاً فشيئاً فى أنحاء العالم، وكذلك ظهرت بين المسلمين من غير العرب بسبب نمو ذلك الشعور مضادة لعالمية الاسلام ولشيوع اللغة العربية ، ولكن يصبح من الخطأ الفاحش أن يهمل ذلك الدور الإيجابى الذى لعبه تعاون الشعوب فى العصور الوسطى فى آسيا بسبب الاسلام أو أن تعد أعمال علماء المسلمين ـ سواء أكانوا إيرانيين أم أتراكاً أم هنوداً أم غيرهم من الشعوب فى نظر الحركات القومية العصرية ـ باطلة أو جديرة بأن تطرح جانباً أو أن تنسب مؤلفاتهم التى كتبت باللغة العربية إلى زعامة العرب السياسية فى ذلك العهد .

ولم يفت البيرونى أن يقدر ـ بشعور صحيح أيضاً ـ أثر التعاون الذى قامت به الشعوب المختلفة فى ميدان الثقافة فى مؤلفاته الأخرى . وكان الاسلام فى نظر البيرونى مدنية أكثر منه ديناً، واللغة العربية لغة علمية أكثر منها لغة للقرآن .

وكان توطيد قوة الاسلام فى مبدأ الأمر فى وسط آسيا قائماً على التوافق بين انتشار النفوذ السياسى للعرب وبين ميل تجار تلك البلاد إلى ترك نظام الإقطاعيات الذى كان سائداً هناك، وقد خدموا الإسلام إذ ذاك مثل المبشرين حتى فى الأماكن الشرقية النائية الخالية من النفوذ السياسى للعرب ، مثلما أنهم فيما بعد فى الربع الأول من القرن الثالث عشر الميلادى (السابع الهجرى) خدموا جنكيز المجوسى ضد إخوانه المسلمين مثل خوارزم شاه وغيره من ملوك الطوائف الذين كانوا يحكمون على نظام الإقطاعيات الذى يمقته هؤلاء التجار؛ وذلك لأنهم رأوا مصلحتهم التجارية فى ذلك .

ثم إن احتلال العرب للتركستان لم تصحبه ذكريات مؤلمة عند الشعب التركستانى بعكس ما كانت الحال عند الشعب الإيرانى . وقد تكيف الاسلام بالتدريج بما يطابق روح تلك البلاد حتى إنه فى زمن البيرونى كانت السلطة السياسية كلها فى أيدى المسلمين من أهل البلاد أنفسهم ، فكان الاسلام عندهم ديناً يحمل فكرة إرشادهم إلى سبيل التعاون بين الشعوب المختلفة فصادف ذلك هوى فى أفئدة علمائهم مثل البيرونى .

ويجب أن نتذكر جيداً أن ما أمكن الإتيان به من العظائم فى التاريخ قام على أساس تعاون الشعوب فى فكرة واحدة ، وذلك لم يكن جلياً فى تاريخ نهضة الثقافة الاسلامية فى العصور الوسطى فقط بل فى جميع أدوار تاريخ البشر .

وعندى أنه إذا عنى بنشر المدونات الجغرافية الإسلامية مع التحليل والانتقاد كما بينت آنفاً، عن طريق اهتمام الهيئات الإسلامية الحاضرة من جهة، والتعاون العملى مع علماء أوربا من جهة أخرى، لأمكن أن تهيأ تربة صالحة لبذور التعاون الجديد المثمر لهذه الدول والشعوب الاسلامية .

ومن الواضح الجلى أن دراسة تاريخ ثقافة العالم الإسلامى تقوم على أساس متين إذا لم تبق كالسر محصورة بين علماء اللغة والمستشرقين ، بل باتساع نطاقها من جهة البحث والتدقيق حتى تشمل كل الدوائر العلمية العامة . وكذلك إذا أصبحت هذه المصادر الشرقية لجميع فروع العلم فى متناول معاهد العلم وكلياته التى تشتغل بالبحوث فى تاريخ حضارة البشر .

فلهذا أعتقد أن ترجمة هذه المصادر الجغرافية الاسلامية وسائر مصادر تاريخ المدنية الاسلامية إلى أمهات اللغات الأوربية واجب تشترك فى تأديته جميع الشعوب المتحضرة فى العالم؟

أحمد زكى وليدى